مقام تزكية النفس عند الصوفية

الأستاذة: بلعباس زليخة

المركز الجامعي الطارف

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبينا محمد وعلى جميع إخوانهالنبيين وآله وصحب وسلم،أما بعد:

إن التصوف علم يبحثفي الأخلاق وتزكية النفس وكيفية تصفيتها منأمراضها وأدرانها وتحليها بالأوصاف الحميدة التي كان عليهاالسلف الصالح. قال الإمام الجنيد رحمه الله : " التصوف: استعمال كل خلق سَني ، وترككل خُلق دني. "[1]وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: "التصوف تدريب النفس علىالعبودية، وردها لأحكام الربوبية[2]."

لم يكن التصوف في يوم من الأيام شرعة مستقلة ولا دينا جديدا، إنما هو تطبيق عملي لدين الله تعالى وإقتداء بسنة رسوله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.فالتصوف جزء لا يتجزأ من دين الإسلام والمقصود به هو تزكية النفس وإصلاح القلب وتعمير الظاهر والباطن بكل خير للوصول إلى مقام الإحسان.

إن تزكية النفس وتطهيرها من سوء الاعتقادات وسوء الأخلاق من أعظم غايات الشريعة الإسلامية كما قال صلى الله عليه وسلم: {إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق}. كماأن ترقيةُ النفوس هي منتهى آمال السالكين إلى الله، والنفس تترقى بالمجاهدة والرياضة من كونها أمَّارة إلى كونها لوَّامة ثم مطمئنة. فالنفس الأمارة: هيالتي تأمر صاحبها بما تهواه من شهوات الباطل؛ فإن أطاعها قادته إلى كلشر وإن عصاها فقد ضفر بكل خير، وأما اللوامة: (فهي النفس اللؤوم التيتُنَدِّم على ما فات وتلوم عليه) كما قال ابن عباس وقتادة. وأما المطمئنةفهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعة أمره، فاطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره،واطمأنت إلى لقائه ووعده ، واطمأنت إلى قضائه وقدره.[3]

إن لتزكية النفس أهمية بالغة للإنسان؛فالنفس من أشد أعداءه الداخليين لأنها تدعوإلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، وسائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانبها، ولذلككان صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من شرها كثيراً،كما في حديث أبيهريرة عند ابن أبي حاتم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ "فألهمهافجورها وتقواها" فقال: {اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليهاومولاها.} وفي المسند والترمذي أنه صلى الله عليه وسلم علم حصين بن عبيد أن يقول{ اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي .}

قال ابن القيم رحمه الله: وقد اتفق السالكونعلى اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلىالرب، وأنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها والظفر بها.[33]

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

إن تزكية النفس طريقالجنة، قال سبحانهوتعالى:﴿وَأَمَّامَنْخَافَمَقَامَرَبِّهِوَنَهَىالنَّفْسَعَنِالْهَوَى(40) فَإِنَّالْجَنَّةَهِيَالْمَأْوَى(41)﴾[4]فهي إذن شرط لدخول الجنة.

فإذن ينبغي علىالإنسان أنيعمل على إكمال نفسه بتزكيتها وتربيتها، فهذه النفس تصاب بالأعراض التي تصاب بهاالأبدان، فهي محتاجة إلى تغذية دائمة ورعاية مستمرة، فلذلك احتاج الإنسان إلىأن يراقب تطورات نفسه، ويعلم أنها وعاء إيمانه، وأهم ما عنده هو هذا الإيمان، فلا بد من العمل على تنمية هذا الإيمان وزيادته عن طريقتزكية هذه النفس وتهذيبها. يقول سيد قطب رحمه الله:"إن هذا الكائن(أي الإنسان) مخلوق مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد مزدوج الاتجاه، بمعنى أنه فيطبيعة تكوينه : من طين الأرض، ومن نفخة الله فيه من روحه، وهو لذلك مزود باستعداداتمتساوية للخير والشر، والهدى والضلال، فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هوشر، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى أيهما أراد، وهذه قدرة كامنة في كيانه يعبرعنها القرآن بالإلهام تارة ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها...﴾ ويعبر عنهابالهداية تارة ﴿وهديناه النجدين﴾ وإلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوةواعية مدركة موجهة في ذات الإنسان هي التي تناط بها التبعة، فمن استخدم هذه القوةفي تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعدادات الخير فيها وتغليبها على استعدادات الشرفقد أفلح، ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب ."[5]

ومن الوسائل التييتوصل بها إلى تزكية هذه النفس وتهذيبها مايلي:[6]

- التوبة، فهي أول مقاماتمنازل العبودية عند السالكين، وبها يذوق الإنسان حلاوة الانتقال من التخلية إلىالتحلية، قال الله عز وجل منوها بشأنها: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنونلعلكم تفلحون﴾[7] وقال سبحانه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم. ﴾[8]
- لزوم الاستغفار والذكر عموماً، لقول اللهعز وجل: ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين. ﴾[9] وقالتعالى: ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما.﴾ [10] وقالتعالى: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنهكان غفارا﴾[11]إلى غير ذلك من الآيات.
- المحافظة على الفرائض، لأنها أفضل طاعة يتقربها العبد إلى مولاه في قوله تعالى في الحديث القدسي:« وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه».
- الإكثار من النوافل لقول الله عز وجل في الحديث القدسي: «...ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىأحبه...»وأعظمها تأثيراً في تزكية النفوس هو ما كان منها أكثر مذلة وخضوعاً لله عزوجل.
- تدبر القرآن، فهو جلاء القلوب وإذا صفى القلب زكت النفس، ففي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم:{إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل وما جلاؤها قال : تلاوة القرآن وذكر الموت}.
- مخالفة النفس والإنكار عليها وعدمتلبية رغباتها لأنها داعية للراحة والعصيان، يقول الغزالي رحمه الله :«اعلم أنأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء مبالغة في الشر فرارة منالخير، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعهاعن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك.»[12]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- سوء الظن بالنفسوالحيلولة بينها وبين الاغترار بالعمل، فإن حسن الظن بالنفسيمنع من كمال التفتيش، يقول ابن القيم رحمه الله :«... على السالك أن لا يرضى بطاعتهلله، وألا يحسن ظنه بنفسه، فإن الرضى بالطاعة من رعونات النفس وحماقاتها، ودليل علىجهل الإنسان بحقوق العبودية وما يستحقه الرب سبحانه ويجب أن يعامل به، ثم إن رضىالإنسان وحُسْن ظنه بنفسه يتولد منهما من العجب والكبر والآفات الباطنة ما هو أشدمن الكبائر الظاهرة من الزنا وشرب الخمر، ولا يكمل هذا المعنى عند العبد إلا أنيربأ بنفسه عن تغيير المقصرين من إخوانه، فازدراء الإنسان بنفسه أولى به من تعيرالمقصرين، ولعل تعييرك لأخيك أعظم إثماً من ذنبه لما فيه من صولة الطاعة وتزكيةالنفس وشكرها والمناداة عليها بالبراءة من الذنب وأن أخاك باء به، ولعل كسرته بذنبهوما أحدثه له من الذل والخضوع والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب ووقوفه بين يديالله ناكس الرأس خاشع الطرف منكسراً أنفع له وخير من صولة طاعتك وتكثرك بها، فذنبتذل به لديه أحب إليه من طاعة تدل بها عليه، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواءاستخرج به داء قاتلا هو فيك ولا تشعر.»[13]
- محاسبة النفس : وقد دل على وجوب محاسبة النفس قول الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾[14] وقوله صلى الله عليه وسلم: {الكيس من دان نفسه وعمل لمابعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني[15]}، وقالالحسن البصري: "إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة منهمته"[16]. وذكر الإمامأحمد عن وهب قال :'مكتوب في حكمة آل داود : حق على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات :ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذينيخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحلويجمل، فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات.
- ومنأسبابتزكيةالنفسالدعاء،فهوسلاحالمؤمن، وذلك بأن يلجأالإنسان إلى الله دائماً أن يقيهشر نفسهو أنيعينهعلىطاعةالله،فقدكانمندعائهعليهالصلاةو السلام: {اللهمأنعشني و أجبرنيو أهدنيلصالحالأعمالو الأخلاق، فإنهلايهديلصالحهاو لايصرفسيئهاإلاأنت}.[17]

هذه الوسائل وغيرها من أهم ما اختص به التصوف وحرص على تجسيده والالتزام به. «قال ابن زكوان في فائدةالتصوف وأهميته:"علمٌ به تصفيةُ البواطنْ مِن كدَرَاتالنفس في المواطنْ"؛ أي عيوبها وصفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش وحبالثناء والكبر والرياء والغضب والطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء،لأن علم التصوف يطلع على العيب والعلاج وكيفيته، فبعلم التصوف يُتوصل إلى قطع عقباتالنفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بذلك إلى تخليةالقلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله سبحانه وتعالى».[18]

أما تحلية النفس بالصفات المحمودة كالتوبة والتقوى والاستقامة والصدق والإخلاص والزهد والورعوالتوكل والرضا والتسليم والأدب والمحبة والذكر والمراقبة... فللصوفية بذلك الحظالأوفر في العلم والعمل.

فالتصوف هو الذي اهتم بهذا الجانب القلبي بالإضافة إلى مايقابله من العبادات البدنية،ورسَمَ الطريق العملي الذي يوصل المسلم إلى أعلى درجات الكمال الإيماني والخُلُقي،فهومن هجعمليكامل،يحقق انقلاب الإنسان من شخصية منحرفة إلى شخصية مسلمة مثالية متكاملة،وذلك من الناحية الإيمانية السليمة، والعبادة الخالصة، والمعاملة الصحيحة الحسنة، والأخلاق الفاضلة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن هنا تظهر أهمية التصوف وفائدته،ويتجلى لنا بوضوح،أنه روح الإسلام وقلبُهُ النابض.لهذا نرى العلماءالعاملين،والمرشدين الغيورين على دينهم،ينصحون الناس بتحقيق التقوى والإخلاص لله ودوام تزكية النفس ليتذوقوا معاني الصفاء القلبي والسمو الخُلقي،وليتحققوا بالتعرف على الله تعالى المعرفةاليقينية،فيتحلوابحبهومراقبتهودوامذكره.

ولماكانهذاالطريقصعبالمسالكعلىالنفوسالناقصة،فعلىالإنسانأنيجتازهبعزموصبرومجاهدةحتىينقذنفسهمنبُعدالله لهوغضبه. قالالفضيلبنعياضرحمهالله:

«عليكبطريقالحق،ولاتستوحشلقلةالسالكين،وإياكوطريقَالباطل،ولاتغتربكثرةالهالكين.

وكلمااستوحشتمنتفردكفانظرإلىالرفيقالسابق،واحرصعلىاللحاقبهم،وغُضَّالطرفعنسواهم،فإنهملنيغنواعنكمناللهتعالىشيئاً،وإذاصاحوابكفيطريقسيركفلاتلتفتإليهمفإنكمتىالتفتَّإليهمأخذوكوعاقوك»[19]

إنالتصوفصفاءالمعاملةمعاللهوالصدقبالقولوالعملوالنيةواجتنابالمحرموالتزامالواجبوالإكثارمننوافلالطاعاتو تعلقالقلبالآخرةوعدمتعلقهبالدنياوزينتهامعالتواضعوالانكساروغضالبصروحفظالجوارح،معالحلموالتأدببآدابالشريعة وإتباعالرسولفيكلصغيرةوكبيرة،والعملبقولاللهتعالى: ﴿ قلإنكنتمتحبوناللهفاتبعونييحببكمالله﴾[20]. اللهم اجعلنا من أحباءك وخاصتك، ووفقنا لفعل ما تحبه وترضاه من صالح القول والعمل، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، والحمد لله رب العالمين وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش:

1) نورالتحقيق في صحة أعمال الطريق،حامدصقر، مطبعة دار التأليف، مصر، ط2، 1970، ص93.
2) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم الجوزية ج1 ،تحقيق :محمد حامد الفقي،دارالمعرفة،بيروت،1975، ص75 – 78.
3) سورة النازعات، الآيتان 40-41.[1]
4) في ظلال القرآن ج6، سيد قطب، ص 3893.[1]
5) دليل إنه الله، سيدمحمدبنجدو:
6) http://www.zadalmaad.com/da/show_html_show.php?id=161
7) سورة النور من الآية 31.[1]
8) سورة التحريم من الآية 8.[1]
9) سورة الزخرف الآية 36.[1]
10) سورة النساء الآية 110.[1]
11) سورة نوح الآية 10.[1]
12) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ج 4، ص 382.[1]
13) تهذيب مدارج السالكين،إبن القيم الجوزية، هذبه عبد المنعم صالح العزى، ص 210.[1]
14) سورة الحشر الآية 18.
15) رواه أحمد وغيره.
16) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم الجوزية ج1، ص78.
17) رواه الطبراني.
18) النصرةالنبوية،مصطفىالمدني،ص 26
19) المننالكبرى،للشعراني،ج1، ص4.
20) سورة آل عمران الآية 31.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com